ابو سعيد السيرافى (١)
وكتاب سيبويه

الدكتور ابراهيم السامرائي
استاذ في قسم اللغة العربية

هو أبو سعيد الحسن بن عبدالله بن المرزبان السيرافي النحوي • كان أبوه من أهل سيراف وسيراف من مدن ساحل الخليج الشرقي ، لا تبعد كثيراً عن البصرة قاعدة المسلمين التي خرج منها الاسلام وانتشر في شرقي الدولة الاسلامية •

وهذه الاسرة الفارسية حديثة العهد بالاسلام ، فقد كان أبوه مجوسياً اسمه بهزاد ويعني هذا في الفارسية مبارك المولد فأسلم مع من أسلم في هذه البيئة الاسلامية •

وما كان لعبدالله هذا أن يحفظ التاريخ ذكره وخبره لولا أن قدّر لابنه أبي سعيد أن يكون من أعلام العربية البارزين ، فقد كان من أكابر الفضلاء وأفاضل الادباء ، لا نظير له في علم العربية كما ذكر ابن الانباري(٢)• وكان ذا معرفة واسعة • قال ابن الفرات : كان أبو سعيد عالماً فاضلا معدوم النظير في علم النحو خاصة • وذكر رئيس الرؤساء أبو القاسم علي بن الحسين : أن أبا سعيد كان يدرس القرآن والقراءات وعلوم القرآن والنحو واللغة والفقه والفرائض والكلام والشعر والعروض والقوافي والحساب وذكر علوماً سوى هذه • وكان من أعلم الناس بنحو البصريين • وانتحل في الفقه مذهب أهل العراق • وقال

---

(١) انظر ترجمته في : انباه الرواة ١/٣١٣ ، الانساب للسمعاني ٣٢١ب ، بغية الوعاة ٢٢١ ، تاريخ بغداد ٧/٣٤١ ، الكامل في التاريخ لابن الاثير ٧/٩٧ ، روضات الجنات لمحمد باقر الخونساري ٣١٨ ، شذرات الذهب ٣/٦٥ ، طبقات النحويين للزبيدي ١٢٩ ، اللباب لابن الاثير ١/٥٨٦ ، معجم الادباء ٨/١٤٥ ، معجم البلدان ٥/١٩٣ ، النجوم الزاهرة ٤/١٣٣ ، نزهة الالباء (بتحقيق السامرائي) ٢١١ ٠

(٢) نزهة الالباء ٢١٢ ٠

رئيس الرؤساء : وقرأ على ابن مجاهد في بغداد القرآن ، وقرأ على أبي بكر بن دريد اللغة ، ودرسا جميعاً عليه النحو ، وقرأ علي أبي بكر بن السراج وعلى أبي بكر المبرمان النحو وقرأ عليه أحدهما القراءات ودرس الآخر عليه الحساب(٣) .

وكان زاهداً لا يأكل الا من كسب يده ، ولا يخرج من بيته الى مجلس الحكم ولا الى مجلس التدريس في كل يوم الا بعد أن ينسخ عشرة ورقات يأخذ أجرها عشرة دراهم تكون قدر مؤونته ثم يخرج الى مجلسه . وكان يذكر عنه الاعتزال ولم يكن يظهر ذلك .

وقد قال القفطي في « الانباه » : انه ذكر أخباره موجزة لانه أفرد لهـا مصنفاً سماه : « المفيد في أخبار أبي سعيد » ونص على أنه « كتاب ممتع » .

وقد صنف تصانيف كثيرة أكبرها « شرح كتاب سيبويه » ولم يشرح كتاب سيبويه أحد أحسن منه ، ولو لم يكن له غيره لكفاه فضلا . وقد كان محسداً بسبب هذا الشرح الكبير « للكتاب » ، فكان معاصروه من أعلام العربية يعجبون به ، وعجز عن مثله شيوخ لهم كانوا معروفين بسعة الاطلاع وطول الباع . وكان أبو علي الفارسي خاصة يتقد غيظاً عليه ، وقد حال غيظه الى جحود ، فأخذ هو وأصحابه يفضلون الرماني عليه حين يطلب اليهم أن يوازنوا بينه وبين أبي سعيد .

وعاصر أبا سعيد السيرافي أبو علي الفارسي وأبو الحسن الرُماني ، وكانوا قد تلمذا جميعاً لابي بكر بن السراج ، ولكن كلا منهم كان قد انفرد بشيء عرف به ، فقد كان أبو علي الفارسي يعنى بأصول النحو وبما كان يسمى في عهـده بفقه اللغة . واهتم أبو الحسن الرماني بالاعتزال وكان ينصرف الى الدراسات القرآنية ، فقد كتب في اعجاز القرآن والدفاع عنه ، شأنه في ذلك شأن المعتزلة الاولين الذين كانوا يقارعون الخصوم ، وكتابه « النكت في اعجاز القرآن »(٤) يوضح هذا المنحى . أما نحو أبي الحسن الرماني ففيه يقول معاصره أبو علي الفارسي : « ان كان النحو ما يقوله الرماني فليس معنا منه شيء ، وان كان النحو مانقوله فليس معه منه شيء » .

---

(٣) انباه الرواة ١/٣٢٣ .

(٤) طبع ضمن كتاب « ثلاث رسائل في اعجاز القرآن » القاهرة دار المعارف .

وقد غلب المنهج الكلامي على علم أبي سعيد في النحو وسائر علوم العربية كما سنتبين في شرحه للكتاب • وقد كان هذا المنهج طابع الدرس في القرن الرابع ، ولم يكن الافلات منه ميسراً للدارسين أمثال أبي سعيد ، وليس أدل على هذا من المناظرة التي جرت بينه وبين متّى بن يونس القنائي الفيلسوف في مجلس الوزير أبي الفتح بن الفرات ، وتصدي أبي سعيد له • وكان قد حضر هذه المناظرة من الاعلام : الخالدي وابن الاخشيد والكندي وابن أبي بشر وقدامة بن جعفر وغيرهم • وقد دهش ابن الفرات وجميع من حضر لمنطق أبي سعيد وقوة جدله وروعة بيانه وأشار الى ذلك ياقوت في « معجمه » وأبو حيان في « المقابسات » و « الامتاع »(٥)• وقد كان أبو حيان التوحيدي تلميذاً باراً بأستاذه أبي سعيد فقد أعجب به أيما اعجاب وتشبه به وأخذ عنه كثيراً حتى تأثرت شخصية التلميذ بشخصية شيخه الاستاذ ، فأبو سعيد في نظر تلميذه عالم العالم وشيخ الدنيا ومقنع أهل الارض »(٦)• ويعتقد لويس ماسينيون أن أبا سعيد السيرافي « علّم تلميذه في سنّ مبكرة أسرار علم التصوف »(٧) حتى صار التوحيدي شيخاً في الصوفية كما يذكر ياقوت •

وقد ورد ابن العميد الى بغداد فكرم العلماء وعمر بهم مجلسه وبأعلام اللغة والأدب البغداديين اذ ذاك ، وقد وصل أبا سعيد والرماني بمال ، وأنهما في مجلس ابن العميد اذ بأبي الحسن العامري والفيلسوف النيسابوري يحضر هذا المجلس ، وقد تكلموا في أشتات من الموضوعات وعرضوا لمشكلات في اللغة والادب ومختلف ألوان المعرفة ، وفي هذه المناسبة يسأل العامري أبا سعيد فيوفق الى جواب يرضي الحاضرين ويعجب به ابن العميد مع قوة هذا المناظر وخطره ، ومنزلته في نفوس الحاضرين • وكان أبو سعيد يقول : « ما دهيت قط بمثل ما دهيت به اليوم » يريد يوم اجتماعه بأبي الحسن النيسابوري الفيلسوف •

---

(٥) ياقوت ، معجم الادباء ٨/١٩٠ ؛ التوحيدي المقابسات (شيراز ١٣٠٦) ٧٢ ، الامتاع ١/١٠٨ ــ ١٢٨ •

(٦) التوحيدي ، المقابسات ٢٣

(٧) Recueil des textes inédits concernat l'histoire de la mystique en pays de l'Islam p. 86.

ويتحدث الاندلسي الى ياقوت فيقول له : « فارقت بلدي في أقصى المغرب طلباً للعلم ، وابتغاء مشاهدة العلماء ، فكنت الى أن دخلت بغداد وتلقيت أبا سعيد ، وقرأت عليه كتاب سيبويه نادماً سادماً في اغترابي عن أهلي ووطني ، من غير جدوى في علم أو حظ من الدنيا ، فلما سعدت برؤية هذا علمت أن سعيي قرن بسعدي وغربتي اتصلت بنيتي وأن عنائي لم يذهب هدراً ، وأن رجائي لم ينقطع يأساً »(٨) .

«الكتاب» وشروحه

كتاب سيبويه من أشهر الكتب النحوية ، أو قل من أشهر كتب العربية ذلك أن مادته الضخمة لا تقتصر على النحو والصرف ففيه أشتات من مواد مختلفة . ولهذا الكتاب قيمة تأريخية ، فهو من أوائل الكتب التي وصلت الينا عما دون في علوم العربية ، أو قل هو أول كتاب في النحو وصل الينا عن القرن الثاني الهجري . وقد جاء في أخبار النحويين الاقدمين أن عيسى بن عمر كان قد صنّف نيّفاً وسبعين تصنيفاً عدمت ، ومنها تصنيفان كبيران اسم أحدهما (الاكمال) ، والآخر (الجامع) . وقد قالوا : ان الجامع هو كتاب سيبويه ، زاد فيه وحشّاه ، وسأل مشايخه عن مسائل منه أشكلت عليه فذكرت له فأضافها . وأنه لما أحضره الى الخليل بن أحمد ليقرأه عليه عرفه الخليل وأنشد :

بطل النحو جميعاً كله   غير ما أحدث عيسى بن عمر
ذاك اكمال وهذا جامع   فهما للناس شمس وقمر

فأشار الى الجامع بما يشار به الى الحاضر وهي لفظة هذا(٨) .

ولا تشغلنا هذه الاقوال ، كما لا نريد أن نبحث في صحة نسبة الكتاب لسيبويه .

وللكتاب قيمة علمية تجعلنا في حيرة من أمر هذا النحو الذي يطالعنا بأصوله وفروعه وتخريجاته ثم بمصطلحه الفني الخاص . ومن مجموع هذا نستطيع أن

---

(٨) القفطي ، انباه الرواة ٢/٣٧٥ و ٣/٣٤٧ .

ندرك أن النحو كان قد سلخ من عمره حقبة طويلة بحيث وصل الينا على هذا النسق الذي نجده في « الكتاب » وربما بات أقرب الى اليقين القول بأن نشأة النحو كانت منذ أيام أبي الاسود الدؤلي .

يبدأ سيبويه « كتابه » بمقدمة يسيرة يعرض فيها لاقسام الكلام وحركات الاعراب والبناء أو مجاري أواخر الكلم ، كما يعرض للمسند والمسند اليه . وقد يكون من المناسب أن نشير الى أن مسألة الاسناد والمسند والمسند اليه تطالعنا أول مرة في هذا السفر الجليل .

وان النحويين الآخرين ممن تقدموا سيبويه أو عاصروه لم يشيروا الى هذه الحقيقة اللغوية اشارة واضحة ، كما خلت كتب المتأخرين من الاشارة الى هذه المصطلحات النحوية .

وقد عرض في هذه المقدمة لما يقع بين الكلمات من اختلاف في اللفظ واتفاق في المعنى ، أو اتفاق في اللفظ واختلاف في المعنى ، واختلاف فيهما جميعاً ، ولما يعترى اللفظ من أسباب الذكر والحذف ، ولما يلحق بالمعنى من حسن او قبح ، واستقامة أو احالة . ويختم هذا بالكلام على ما يحتمله الشعر من الضرورات . ثم ينتقل بعد هذا العرض الواسع الى الكلام على الفاعل في الباب الاول من الكتاب .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

غير أن حاجي خليفة في « كشف الظنون » نفى أن يكون « الكتاب » قد اشتمل على مقدمة قال : « ليس فيه ترتيب ولا خطبة ولا خاتمة »(٩) . وصاحب كشف الظنون لا يعتبر المادة التي مهد بها سيبويه لكتابه ولا يرى فيها نوعا مما أسماه « خطبة » وقد درج المحدثون ممن كتبوا عن الكتاب على ما ذهب اليه حاجي خليفة فقال علي النجدي من أساتذة النحو في مصر « ان الكتاب ليس له مقدمة ولا خاتمة »(١٠) .

وقد قسم سيبويه مادة الكتاب الى قسمين فأوعب المادة النحوية في الجزء الاول من كتابه ، وجعل الجزء الثاني خاصاً بالصرف . على أن هذا لا يعني أن الكتاب قد اقتصر على النحو والصرف فقد أشرنا الى وجود مواد أخرى هي ألصق

---

(٩) حاجي خليفة ، كشف الظنون ٢/١٤٢٦ .

(١٠) على النجدى ، سيبويه امام النحاة : ١٢٤ .

بالبلاغة مثلا كما نجد مادة لغوية تتصل بالقراءات واللهجات • غير ان هذا الحشد من المواد مما اعتبره سيبويه ومعاصروه من بناء العربية •

ولا أريد أن أعرض لنقد مادة الكتاب وطريقة تأليفها وتبويبها فان ذلك لا يدخل في الناحية التي أشغل نفسي بايضاحها والاعراب عنها وهي قيمة الكتاب وأصالته • وقد أشرت الى ذلك ، ومن المفيد أن نقول : ان الكتاب قد استحوذ على اهتمام النحويين الاقدمين فقرأوه وأقرأوه ونقلوا عنه ، سواء في ذلك من عاصره ومن خلفه • قال أبو عبيدة : لما مات سيبويه قيل ليونس بن حبيب : ان سيبويه قد ألف كتاباً في ألف ورقة من علم الخليل • قال يونس : ومتى سمع سيبويه هذا كله من الخليل ؟ جيئوني بكتابه فلما نظر فيه رأى كل ما حكى فقال : يجب أن يكون هذا الرجل قد صدق عن الخليل في جميع ما حكاه كما صدق فيما حكاه عني »(١١) •

وفي هذا الخبر اشارة الى وجود الخليل في مادة الكتاب وأن سيبويه نقل كثيرا عن الخليل بن أحمد وهو يشير الى هذا في مواضع كثيرة من الكتاب ، وكلما قال سيبويه ، وسألته أو قال ، من غير أن يذكر القائل فانما يعنيه •

وقد تكلم الاخفش على كتاب سيبويه وشرحه وأشار اليه وهو الذي نبه على عواره كما قال الكسائي(١٢) • وقال أبو الطيب اللغوي « وهو (أي سيبويه) أعلم الناس بالنحو بعد الخليل وألف كتابه الذي سماه قرآن النحو وعقد أبوابه بلفظه ولفظ الخليل »(١٣) •

وقد أكثر الاولون في هذه المسألة ومن ذلك ما ذكره ابن النديم : « قرأت بخط أبي العباس ثعلب : اجتمع على صنعة كتاب سيبويه اثنان وأربعون انساناً منهم سيبويه • والاصول والمسائل للخليل »(١٤) •

ومهما قيل في مشاركة الخليل وغيره من شيوخ سيبويه في الكتاب فان

---

(١١) ياقوت ، معجم الادباء ١٦/١١٧ •

(١٢) أبو الطيب اللغوي ، مراتب النحويين ٦٨ •

(١٣) المصدر السابق ٦٥ •

(١٤) ابن النديم ، الفهرست ٧٦ وانباه الرواة ٢ /٣٤٧ •

شخصيته ظاهرة كل الظهور فيه ، فقد نقل كثيراً من آراء الخليل وآراء يونس والاخفش وغيرهم ولكنه في كثير من المواضع يبدي رأيه بوضوح وقد يجيء هذا مخالفا أحيانا لما ينقله من آراء شيوخه . وقد اتضح من استقرائنا للكتاب أنه كان يكبر الخليل ويجله ايما اجلال ، ولكن هذا لم يمنعه أن يضعف رأيه ويرد عليه قال : « وزعم الخليل انه يجوز أن يقول الرجل : هذا رجل أخو زيد ، اذا أردت ان تشبهه بأخي زيد ، وهذا قبيح ضعيف لا يجوز الا في موضع الاضطرار »(١٥) .

وهو حين يبحث مسألة من المسائل يعرض للآراء المختلفة فيوازن بينها ويؤيد أحدها مبيّناً وجه القوة فيه ومن ذلك قوله : « وسألت الخليل عن القاضي في النداء فقال : أختار يا قاضي لانه ليس بمنوّن كما اختار القاضي . وأما يونس فقال : يا قاض . وقول يونس أقوى لانه لما كان من كلامهم أن يحذفوا في غير النداء كانوا في النداء أجدر لان النداء موضع حذف يحذفون التنوين ويقولون يا حار ويا صاح ويا غلام أقبل »(١٦) .

وكتاب سيبويه من الكتب الخالدة التي حظيت باهتمام الاقدمين وعناية المحدثين . فلم يعرف أن القدماء اهتموا بشيء اهتمامهم بهذا « الكتاب » فقد أقبلوا عليه باحثين ودارسين وناقدين وأكثروا الرحلة في طلبه ، روى سلمة عن الاخفش قال : كان الكسائي جاءنا بالبصرة فسألني أن أقرأ عليه أو أقرئه كتاب سيبويه ، ففعلت فوجّه اليّ خمسين ديناراً وجبة وشيء(١٧) .

وكان المبرد يقول لمن يطلب قراءة الكتاب عليه « هل ركبت البحر تعظيماً له واستعظاماً لما فيه »(١٨) .

وقال الجاحظ : « وهو كتاب لم يكتب الناس في النحو كتاباً مثله . وجميع كتب الناس عليه عيال »(١٩) .

---

(١٥) الكتاب ١ / ١٨١ .

(١٦) الكتاب ٢ / ٢٨٩ .

(١٧) انباه الرواة ٢ / ٣٧ و ٢٧٣ .

(١٨) ابن الانباري ، نزهة الالباء ٣٩ .

(١٩) القفطي ، انباه الرواه ٢ / ٣٥١ .

وبعد فهذا ما أردت أن أوجزه عن « الكتاب » الذي شغل الناس قديماً وما زال شغلا لطائفة من المعنيين بالدراسات اللغوية والنحوية .

شروح «الكتاب»

قلت : ان القدماء قد اهتموا بالكتاب ورأوا أن الحاجة تدعو الى شرحه وايضاحه فقد جاءت عبارته في كثير من الاحيان موجزة ، وربما كان ايجازها سبباً في غموضها وابهامها قال ابن كيسان(٢٠) : « نظرنا في كتاب سيبويه فوجدناه في الموضع الذي يستحقه ، ووجدنا ألفاظه تحتاج الى عبارة وايضاح لانه كتاب ألف في زمان كان أهله يألفون مثل هذه الالفاظ فاختصر على مذاهبهم »(٢١) .

وعلى هذا فقد شرحه الاوائل أنفسهم .ومن هذه الشروح ما جاء ذكره في طبقات النحويين وفي الفهارس المطولة .

وقد جاء أن أبا عثمان بكر بن محمد المازني (المتوفي ٢٤٨) قد وضع تفسير كتاب سيبويه(٢٢) .

وقد شرح الاخفش أبو الحسن على بن سليمان (المتوفى ٣١٥) « الكتاب » وفسر (رسالته)(٢٣) ، والمقصود بالرسالة المقدمة التي سبق الكلام عليها .

ولأبي بكر محمد بن السري بن السراج (المتوفى ٣١٦) شرح للكتاب أيضا(٢٤) .

ومن هؤلاء النحويين أبو بكر محمد بن علي مبرمان العسكري (المتوفى ٣٤٥) فقد شرح « الكتاب » ولم يتمه . وله شرح لشواهد « الكتاب »(٢٥) .

ومنهم أيضاً صاحبنا أبو سعيد الحسن بن عبدالله السيرافي المتوفى (٣٦٨)

---

(٢٠) الحسن بن محمد بن أحمد بن كيسان أبو محمد النحوي المتوفى سنة ٣٥٨ . انظر انباه الرواة ١ /٣١٩ .

(٢١) البغدادي ، خزانة الادب ١ / ١٧٩ .

(٢٢) حاجي خليفة ، كشف الظنون ٢ /١٤٢٨ .

(٢٣) السيوطي ، بغية الوعاة ٣٣٨ .

(٢٤) المصدر السابق ٤٤ .

(٢٥) حاجي خليفة ، كشف الظنون ٢ /١٤٢٨ .

فقد شرحه كما صنف كتاب « المدخل الى كتاب سيبويه »(٢٦) .

وقد صنف في « الكتاب » أبو الحسن علي بن عيسى الرُماني (المتوفى ٣٨٤) تصانيف كثيرة(٢٧) .

وقد كثرت التصانيف التي وضعت عن « الكتاب » في شرحه واختصاره وتهذيبه أو الاستدراك عليه أو شرح شواهده والتعليق عليها . وفي كل هذا دليل قاطع على قيمة الكتاب وأهميته في الدراسة النحوية واللغوية .

شرح السيرافي

لقد قلت : ان أبا سعيد كان على معرفة واسعة بعلوم العربية جميعها ، وكان أيضا ملماً بعلوم أخرى غير العربية . وقد قيل انه من أعلم الناس بنحو البصريين. وكأن أبا سعيد قد أراد أن يلم بغير هذا المذهب البصري من الدراسات النحوية . وقد بدا له أن يأخذ عن الكوفيين آراءهم في هذا العلم . وقد عرف من كبراء الكوفيين أبا بكر بن شقير(٢٨) وكان يعد في طبقة أبي بكر السراج من البصريين .

وقد أخذ السيرافي النحو عن أبي بكر السراج وعن أبي بكر مبرمان ، ولابدّ ان يكون قد أخذ شيئاً عن نحو الكوفيين مما كتبه ابن شقير الذي أدرك هذه الفترة التأريخية .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

وقد تيسر لي أن أبصر في نسخة من نسخ السيرافي المحفوظة في دار الكتب المصرية ذات العدد ٣٦١ نحو ، وهي نسخة كاملة في ثلاثة مجلدات ضخمة ، يبدأ الاول منها بما بدىء به « الكتاب » وينتهي بباب (ما يقع موقع الاسم المبتدأ ويسد مسده) وهو في ١٧٢٠ صفحة .

ويبدأ المجلد الثاني من باب الابتداء وينتهي بباب (اختلاف العرب في تحريك

---

(٢٦) السيوطي ، بغية الوعاة ٢٢٢ .

(٢٧) القفطي ، انباه الرواة .

(٢٨) هو أحمد بن الحسن بن العباس بن الفرج بن شفير أبو بكر النحوي المتوفى سنة ٣١٥هـ . انظر ترجمته فى نزهة الالباء ١٧١ (طبعة الدكتور ابراهيم السامرائي بغداد ١٩٥٩) وفي بغية الوعاة ١٣٠ .

الحرف الاخير) وهو في ١٠٣٤ صفحة • ويبدأ المجلد الثالث بباب (المقصور والممدود) وينتهي في آخر الكتاب وهو في ٩٠٦ صفحات • وقد تم لي هذا في سنة ١٩٥٦ •

ولست أدعي أني أتيت على كل ما في هذا السفر النفيس ولكني الممت بأسلوبه وطريقته في الشرح وما استدرك به على سيبويه ، ثم جاء الزميل الفاضل الدكتور مازن المبارك من أساتذة كلية الآداب في دمشق فعرض للموضوع في رسالته البارعة عن الرماني(٢٩) • فأفدت من ذلك فوائد كثيرة •

وقد أطال الأقدمون الكلام على هذا الشرح فأطروه أيما أطراء وأقبلوا عليه يتدراسونه • ولعل بغض أبي علي الفارسي للسيرافي كان بسبب من هذه الشهرة التي أصابها السيرافي بشرحه الكبير للكتاب •

يقول أبو حيان في « الامتاع والمؤانسة » في الكلام على أبي علي الفارسي وعلاقته بالسيرافي « وهو متقد بالغيظ على أبي سعيد وبالحسد له كيف تم له تفسير كتاب سيبويه من أوله الى آخره بغريبه وأمثاله وشواهده وأبياته »(٣٠) •

يبدأ السيرافي شرحه دون تمهيد أو مقدمة يشرح فيها طريقته ، ولكن النظر في الكتاب يبين شيئاً مما ذهب اليه في الشرح • كان يأتي بشيء من كلام سيبويه ثم يعقبه بالشرح وذلك كما فعل في (باب ما لاتغير فيه لا الاسماء عن حالها التي كانت عليها قبل ان تدخل لا)(٣١) •

وقد فعل مثل ذلك في (باب النصب فيما يكون مستثنى مبدلا)(٣٢) • غير أنه لم يلتزم هذه الطريقة في « شرحه » كله ، فانه قد يقدم لكلام سيبويه بما ويوضحه كما في (باب الهمز)(٣٣) • وقد يأتي بمادة سيبويه بمعناها لا بألفاظها ، وذلك لان عبارة سيبويه تغيب أحياناً كثيرة على كثير من القراء فهي غامضة يعتورها الابهام •

---

(٢٩) مازن المبارك ، الرماني النحوي (دمشق ١٩٦٣) ص ١٣٦ •

(٣٠) التوحيدي ، الامتاع والمؤانسة ١ / ١٣١ •

(٣١) الكتاب ١ / ٣٥٤ والشرح ٣ / ٩٢ عن كتاب الرماني النحوي ص١٣٨ •

(٣٢) الكتاب ١ /٣٦٣ •

(٣٣) الكتاب ٢ /١٦٣ •

وكأن السيرافي كان يهدف الى أن يكون شرحه واضحا يتفهمه الدارسون • وهذا هو منهج أبي سعيد في بسطه لمادة النحو ، فقد قالوا : « النحويون في زماننا ثلاثة : واحد لايفهم كلامه وهو الرماني ، وواحد يفهم بعض كلامه وهو أبو علي الفارسي، وواحد يفهم جميع كلامه بلا استاذ وهو السيرافي »(٣٤) • والى هذا كان يرمي ابنه يوسف في قوله : « وضع أبي النحو في المزابل في الاقناع »(٣٥) •

وهو في شرحه لا يقتصر على ما جاء به سيبويه وانما يعرض لمسائل كثيرة ولا سيما آراء النحاة الذين خلفوا سيبويه • فقد عرض مثلا لاقوال المبرد التي خالف فيها سيبويه وقد اشتهرت هذه الاقوال فعلق عليها النحويون ، ومن ذلك ما فعله ابن ولاد المتوفى سنة ٣٣٩ هـ في كتابه « الانصار » الذي انتصر فيه لسيبويه ورد أقوال المبرد • وقد وضع الرماني كتابه في « الخلاف بين سيبويه والمبرد » ، ومثل هذا ما جاء في سر صناعة الاعراب(٣٦) لابن جني فقد رد على المبرد مؤيداً آراء سيبويه • وقد رد السيرافي على أقوال المبرد حين تعرض في الابواب التي تناولها سيبويه • كما رد أقوال الكوفيين التي لم يعرض لها سيبويه في « الكتاب » •

وقد استدرك السيرافي أمورا على سيبويه فقال في (باب وجوه القوافي في الانشاد)(٣٧) : « واعلم أني لو اقتصرت على تفسير ألفاظ سيبويه فيما ذكره من القوافي لسقط كثير مما يحتاج اليه فيها ، لأنه لا يستوعب ذكرها ولا قصد الى استيفاء معرفتها وما يتعلق بها ، فعملت على ان أتقصى ذكرها وما يتعلق به مع شرح كلامه »(٣٨) •

وقد نسب السيرافي شيئاً من الخطأ أو السهو الذي وقع في كتاب سيبويه الى الناسخ وذلك في قوله : « قال – أي سيبويه – وزعم أبو الخطاب أنهم يقولون أرض وآراض ، أفعال كما قالوا أهل آهال(٣٩) قال أبو سعيد : والذي عندي أن

---

(٣٤) ياقوت ، معجم الادباء ١٤ / ٧٥ •
(٣٥) ياقوت ، معجم الادباء ٨ / ١٤٩ ، بغية الوعاة ٢٢٢ •
(٣٦) ابن جني ، سر صناعة الاعراب ١ / ٢١١ •
(٣٧) الكتاب ٢ / ٢٩٨ •
(٣٨) الشرح ٥ / ١٧٥ •
(٣٩) الكتاب ٢ / ١٩٩ •

هذا غلط وقع في الكتاب من جهتين ، احداهما أن سيبويه ذكر فيما تقدم أنهم لم يقولوا آراض ولا آرض . والاخرى أن هذا الباب انما ذكر فيه ما جاء جمعه على غير الواحد ، ونحن اذا قلنا أنه أرض وآراض ، وأهل وآهال فهو على الواحد ، كما يقال زند وأزناد ، وفرخ وأفراخ ، وان كان الاكثر فيه أفعُل وأظنه أرض وأراض كما قالوا أهل وأهال فيكون مثل ليلة وليال فيشاكل الباب »(٤٠) .

وقد اهتم أبو سعيد بشواهد سيبويه فهو ينسبها الى قائليها ثم يقرن ذلك بالرواة ويستدرك عليهم ويناقش الروايات مقيدا كل رواية بالمصدر الذي أخذت منه ويتحرى النسبة الصحيحة ، ويرد على النحويين في تمسكهم بالقول الضعيف والشاهد المصنوع كما ينسب كل قول الى صاحبه مجتهدا في ذلك متوخياً الضبط والصحة . ومن ذلك تعقيبه على رأي ليونس بن حبيب من البصريين رواه المبرد في « المقتضب » غير أنه لم يجده في (الكتاب) فقال : وما أدري من أين لأبي العباس هذه الحكاية عن يونس(٤١) .

وهكذا فقد جاء (شرح) أبي سعيد للكتاب شافياً وافياً سهلا على الدارسين مبصراً بمبهمه وغامضه ، ومن أجل هذا كسب الشهرة الذائعة طوال القرون .

مذهب السيرافي في شرحه .

ظهر علم السيرافي في النحو واللغة في هذا الشرح الفخم . وهو مثل واضح لسيطرة المنهج الكلامي على ثقافته . فهو لا يكاد ينتهي من تعليل على طريقة المتكلمين حتى يبدأ بتعليل آخر . ولا يكاد ينتهي من معالجة مشكلة حتى يأخذ بالقارىء الى مشكلة أخرى ثم الى ثالثة فرابعة .

والكثير من هذه التعليلات والتفسيرات لم تخدم اللغة ولا هي من مادتها ، ولكن ذلك كان هوى الناس في ذلك العصر ، ولكل عصر هوىً يأخذ الناس أنفسهم به . وكان لسيطرة هذا المنهج الكلامي والمنطق الذي لا تتحرج في رده الى المنطق الأرسطي ، نتائج سلبية في الدراسة النحوية واللغوية ، ذلك أن طبيعة اللغة والنحو

---

(٤٠) الشرح ٥/٣٨ عن الرماني النحوي لمازن المبارك .

(٤١) مقدمة الرد على النحاة للدكتور شوقي ضيف : ٤١-٤٢ .

تأبى هذا المنطق الجديد ، ومن أجله فسد شيء من هذه العلوم .

وليس أدلّ على هذا من المناظرة التي جرت بينه وبين متّي بن يونس القنائي الفيلسوف في مجلس الوزير أبي الفتح بن الفرات ، وتصدي أبي سعيد له ، وكان قد حضر هذا المجلس الخالدي وابن الاخشيد والكندي وابن أبي بشر وقدامة بن جعفر وغيرهم في مناظرة طويلة دهش ابن الفرات والحاضرون لها ، وأعجبوا بمنطقة وقوة جدله وروعة بيانه ، وقد سبق الكلام على هذا .

ومذهب السيرافي مذهب البصريين عامة ، فهو اذا عرض لرأي من آرائهم قال عنهم « أصحابنا » ولذا فهو يؤيدهم ويدفع عن آرائهم ويرد على الكوفيين . وهذا الاتجاه واضح كل الوضوح في « شرحه » فقد عرض لقول الفراء وعامة الكوفيين في (لولا) وأنها ترفع ما بعدها ، ورأي سيبويه خلاف ذلك لان ما بعدها مرفوع بالابتداء . ويعرض السيرافي لهذين الرأيين ويناقشهما فيقول : والصحيح ما قاله سيبويه(٤٢) .

ومذهب البصريين في القياس معروف ، فهو قائم على القياس ولكنه على ماشاع واشتهر ، ولا يأبهون بالقليل النادر . والقياس عند السيرافي ما وافق الفصيح من كلام العرب ولذلك كثر اعتماده على الشاهد الفصيح الذي صحّت نسبته فهو يقول مثلا «القول الذي ذهب اليه سيبويه هو الصحيح . وشاهده القرآن والقياس»(٤٣) .

وبعد فهذا عرض سريع لما في هذا السفر الجليل من مادة ممتعة تعين على تفهم شيء من تاريخ العربية الذي ما زلنا نجهل الكثير من صفحاته المطوية .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

---

(٤٢) الشرح ٣ / ٢ .

(٤٣) الشرح ٣ / ١٠٢ .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی